احمد محمود زين الدين

مخطط رواية

تصفحت عيناها الصفحة الاولى من الدفتر السميك الابيض الموضوع على الطاولة . رائحة الاوراق والكتب تنتشر في خياشيمها كلما فتحت باب مكتبته . رائحة محببة ومقززة في آن معا ! قرأت في أعلى الصفحة : « مخطط رواية » « ١٦ نيسان » . لم يكتب سوى ثلاث أو اربع صفحات :

(.. التقى بها فجأة وهو يتمدد على أحد المقاعد في حديقة الصنائع . صبية شقراء ، بشرتها ناعمة كغمامة صيف بيضاء ، وعيناها غابتا نخيل ومنبع للاسرار .
تطلعت اليه تطلع المتسائل .

أشرقت عيناه الحزينتان ، المكدودتان وانفرجت أسارير وجهه التي بدأ العجز يقبض عليها . كانت تجلس على المقعد المقابل له ، وحدها دون شريك ودون ان يظهر من خلال ملامحها او سلوكها انها تنتظر رفيقا لها !

اندفعت فجأة قائلة له : أأنت الكاتب فلان ؟

لم يحرك ساكنا . ثم وكأنه استيقظ فجأة من نوم ثقيل حرك رأسه بالايجاب .

أردفت كأنها تتلو كلاما حفظته غيبا : ما زلت شابا ! لقد تصورتك من خلال أكداس الروايات والكتب عجوزا بلغت من العمر عتيا !
في عينيها جرأة غريبة وخيلاء محببة !

افترت أسنانه الكالحة من التدخين تحت شارب كثّ أسود ، وأحس بالزهو والارتياح . ثم أخذ نفسا عميقا من سيجارته التي اصبحت في رمقها الاخير كأنه يحاول ان يستذكر أو يستعيد كلمات الفتاة ويتلذذ بعذوبة طعمها .

ارتسمت دهشة في عينيه : كأنها تعرفه منذ سنوات مديدة ! في كلامها ثقة صديق حميم .

نظر الى بشرتها البيضاء الناعمة مليا : انها توحي بالهدوء والطمأنينة !

وتذكر قسمات زوجته السمراء ، المرتبكة ، الخجولة . عشرون سنة وما زالت سحنتها وقسمات وجهها تدل على ارتباك طفولي بالرغم من الشيخوخة الزاحفة بسرعة الى وجهها . ارتباك يدل على خوف وشكوك طفولية تحاول ان تخفيها خلف ابتسامة وتيرية ، مصطنعة في كثير من الاحيان .
حاول هو ايضا ان يصطنع ابتسامة أبوية ، موحية ، لكنه فشل في ذلك وارتسمت على وجهه بدلا عن ذلك ابتسامة ساخرة . وكأنه فقد معجم الكلمات فحاول ان يداري ذلك بابتسامات بلهاء لا معنى لها. وخاف ان تكشف ابتساماته المصطنعة عن سريرة نفسه ...) .

أغلقت الدفتر ومضت تنفض الغبار من على رفوف المكتبة ، ممسكة بقبضة منفضة الريش الناعمة ، صاعدة وهابطة بها على أكداس الكتب دون ان تثير ضرباتها الناعمة شيئا من غبار لانها اعتادت على تنظيفها يوميا .

ولكنها لم تستطع ان تتخلص من شعور غامض بدأ يضغط عليها بعد قراءتها لمطلع الرواية المخطوطة . هذه التعابير الحارة والكلمات الدافقة بالشعور توحي بصدق ما يكتب ، ثم هذه الاوصاف التي يطلقها على الرجل هي أوصافه نفسه !

ذلك حدس وليس بمقدورها البتة ان تتكهن بمسار القصة ومدى محافظتها على صدق التعبير ودقة الوصف . ولما خرج من الحمام كانت تنظر اليه نظرة معبرة وقد بدا حليق الذقن ، مفتر الثغر وقد حاول ان يبدو بمظهر المهتم بها .

التهم بيضتين وشرب كوبا من الحليب الساخن وخرج .

وفي المساء عاد متأخرا ودخل الى مكتبته ولم يدخل مخدعه الا عند السحر .

* * *

.. في الصباح شرّعت نوافذ غرفة المكتب كي تطرد ذلك الاحساس الغريب برائحة الكتب ولتتلقى في وجهها الاسمر حزمة من نور الشمس الربيعية المعتدلة تعقبها موجات من الهواء البارد المشبع برائحة أوراق الاشجار الخضراء والازهار البرية . وبحركة عفوية أمسكت بقبضة منفضة الريش وبدأت تنفض الغبار عن أكداس الكتب المنتظمة والمغلفة داخل زجاج المكتب . وعلى الطاولة كان الدفتر ما زال موضوعا . ولمحت خطه الانيق ، وقرأت : « ١٧ نيسان » :

(.. قادته قدماه الى حديقة الصنائع ، ولما أغلق وراءه باب سيارة التاكسي أحس بنفسه بانه مراهق يحاول ان يظهر بمظهر الكبار ، أو انه يحاول ارتكاب جرم عن سابق اصرار وتعمد . وحاول اقناع نفسه بصحة فعلته : لقد اعتاد ان يزور هذه الحديقة مرارا وتكرارا خاصة في هذا الفصل الربيعي !

ومن خلال مرأى الطبيعة بأشجارها الباسقة الخضراء ، وحوض الماء الدائري ، الواسع ، ونافورات الماء في وسطه ثم تلك المقاعد

الخشبية التي نثرتها يد شاعرية ، فنانة ، عند كل زاوية من زوايا الحديقة ، ثم زقزقات الطيور ورفيف اجنحتها وهي تلامس أطراف اوراق الاشجار الباسقة . كل هذا يوحي بتفتح مشاعره وأحاسيسه ويشعره بانه ابن الطبيعة . والمرء بحاجة دائما لزيارة أمه !

أكان هذا هو المنطق الحقيقي الذي قاده الى هنا ثانية ؟ المهم انه كان يدرك في قرارة نفسه انه سيلتقي بها ! وتساءل : أترى تتخيل نفسها بطلة من بطلات رواياته ؟ أم هي تحاول فرض نفسها عليه لتكون بطلة من بطلات رواياته في المستقبل ؟

.. التقت بل تعانقت النظرات تحمل خليطا عجيبا من احساسين متناقضين : احساس المفاجأة واحساس عفوية اللقاء . العينان نفسهما والبشرة النقية ، البيضاء ، والملامح الجريئة !

لقد تعمد ان يجلس على نفس مقعد الامس وكانت هي ايضا تجلس على نفس المقعد المقابل . ولكن من جاء قبل الآخر ؟ لا يدري !

هزت رأسها تحية له كأنها تتقن دورها جيدا ودون ان تشعر بحرج او ارتباك او باحساس مغاير لطبيعة الاشياء . في عينيها ما زال يلمع بريق الجراة تحاول ان تقتحم به أعماق الاشياء المجهولة والغامضة . وكأنها امتلكت منه زمام الامور فانتظر منها اشارة البدء : كلمة ، عبارة ، سؤال !

ترى ماذا كانت تستطيع ان تفعل امرأته الخجولة ، الرقيقة أمامه ؟

لقد كانت ذكية ، ربما مثلها أو أكثر ! كانت أنيقة ونظيفة في كل شيء : غرف النوم والطعام والمطبخ ومكتبته . ثم هندامها الذي لا تحاول ان تبدو فيه جميلة بمقدار ان تبدو أنيقة . وكلامها ! فهي لا تحاول ان تستعمل الا العبارات الدقيقة والمختصرة . ثم مواعيدها : الاستيقاظ ، الغداء ، السهرة ، النوم . مواعيد محددة بدقة ! هي تشعرك بأن الحياة منظمة ، واضحة ومفيدة ، ولكن مع ذلك لا تدفعك هذه الاشياء لان تحيا بسعادة !

أما هذه الجالسة امامك فيكفي ان تنظر الى عينيها لتدرك جهلك الكامل بكل أسرار الحياة !

لقد بدأت تتكلم بثقة عن كتبه ورواياته العاطفية . قالت له بجراة الناقد المتسلح بدقة النظر وعمق الثقافة : حاولت أن تتحدث عن المرأة فرسمتها عاجزة في بعض الاحيان تكبلها رواسب الماضي وأثقال الحاضر . ثم رسمتها في مرات اخرى متمردة ، ثائرة ، لكنها ضائعة في خضم الحياة . أتدري انك صورتها من خلالك انت ! من خلال عواطفك ومشاعرك وأحاسيسك وأوهامك وخيالاتك فجاءت هذه الصور المتناقضة ... ومضت تتحدث باسهاب وقد آنست أذنا صاغية ...) .

بدا لها هذه المرة ان القصة بدأت تنحو منحى صادقا ، واقعيا . أليست في هذه المرأة بعض ملامحها وسلوكها ؟ ألم يقل لها مرات عديدة : اني أعجب من صبرك وقدرتك على التنظيم والدقة والاناقة في عملك !

لكنها ضحكت لهذا الهاجس وقالت في نفسها : لو أخبرته عن طوية نفسي وهاجسي هذا لبدوت أمامه امرأة جاهلة لم تقرأ كتابا في حياتها أو تطالع رواية . فقلما تخلو رواية من بعض ملامحنا !

.. ودلف من الباب بقامته المديدة ووجهه الذي يوحي بكبرياء الشباب . ارتسمت على شفته ابتسامته المعهودة كأنها أصبحت اشارة لدخوله البيت أو انها واجب مدرسي عليه ان يؤديه كل يوم ! ردت هي بابتسامة مماثلة لكنها ممزوجة هذه المرة بشيء من التهكم المرير الذي خلفه ذلك الهاجس الساخر .

وبعد ان جلسا الى مائدة العشاء تفحصت حركاته كأنها تراه لاول مرة . حاولت أن تتكلم في أي موضوع يثير اهتمامه كي تبدد هذا الشعور الثقيل بالصمت ، ولكن كان يبدو هو الآخر ساهما شاردا ، لا يحس بوجودها بالرغم من محاولاته الدائبة بأن يشعرها باهتمامه بها . كان يعيش في حالة من الشرود كلما كان يعد رواية . ولكن شروده المستمر يثير قلقا لديها وربما يعزز هواجسها .

وانتهى من طعامه متوجها نحو مكتبته كالنائم تحت تأثير الايحاء المغناطيسي . ولما وصل الى باب مكتبته التفت اليها . كانت لا تزال جالسة على طاولة الطعام ، وابتسم لها ابتسامة منتزعة من بين شفتيه أو ربما خيل لها هكذا ! ولقد كانت هذه الابتسامة كافية للتعبير عما يكن لها في دخيلة نفسه من احترام وتقدير لمشاعرها . وان كانت هي تعتبر ان هذه الطقوس اليومية بدأت تفقد حرارتها لتتحول الى اشارات وحركات فقدت ايحاءاتها ودلالاتها وتعبيراتها العميقة .

... ومضى الهزيع الاول والثاني من الليل هادئا ، غارقا في صمت عميق وحاد يجرحه سعاله في بعض الاحيان في غرفة مكتبه . وتسمرت عيناها هي في سقف الغرفة ، كأنها تنتظر بزوغ الصباح لتلتقط آخر الخيوط المتشابكة من حولها .

* * *

... وكان من العادة ان تكون المكتبة آخر الغرف التي تحاول تنظيفها . ولكن يبدو هذه المرة ان الدافع لولوج المكتبة ليس النظافة بل معرفة آخر تلك الخيوط . كانت متأكدة بأنه قضى ليله في المكتب لتدوين بقية الرواية .

وبلهفة قلبت صفحات الدفتر الابيض السميك . وقبل ان تجلس على الكرسي لتقرأ ، أحست بقرارة نفسها بأنها تقوم بعمل مبتذل ! هل كانت حريصة على أن تعرف التتمة ؟ وهي التي كانت في كثير من الاحيان تماطل في قراءة فصل او فصول قصيرة من رواياته المخطوطة التي كان يعرضها عليها قبل اتمامها ؟ أم انها تريد ان تتعرف جليا الى ملامحها التي بدأت تظهر في ثنايا القصة ؟

هل تعمد ان يصورها ام انه تطابق في الافكار ؟ ثم أليس الرجل يحمل كثيرا من ملامحه وقسماته هو : الوجه القوي ، والشارب الكث ، والرجولة التي تقاوم الموت والفناء ، و .. و .. ؟ ثم تلك الفتاة الغامضة والساحرة ! أتظل على سحرها وغموضها ؟ أم ستنتهي الى ان تكتشفها فتاة بائسة ، يائسة ؟

بدا لها انه لو ضبطها بهذا الموقف لبدت له أسخف النساء وربما فقد الكثير من ثقته واحترامه لها !

لكنها ما لبثت أن فتحت الدفتر بعد ان كانت قد أغلقته . ورددت في نفسها وربما بصوت مرتفع هذه المرة كي تقنع ضميرها واحساسها الباطني : ان بقية القصة مشوقة .

وقرأت : « ١٨ نيسان » :

(.. هذه المرة كان يجلس على المقعد وقد تخفف من ذلك الشعور بالجرم ، تلك التجربة المعقدة ، المتناقضة ، المخيفة ، والعنيفة ! وبدت له جريمته الآن عملا روتينيا كأي عمل آخر يزاوله المرء ، كالكتابة مثلا ! وفي هذه المرة لم يجلسا قبالة بعضهما بل جلست قربه وقد مدت يدها خلفه .

شم في خصلات شعرها عطر الزهور البرية . ومن بين شفتيها تفتحت مئة زهرة برية ملونة بألوان الربيع . كانت ما تزال تملك تلك النظرة الجريئة . ولما أطبق على شفتيها أحس بالخجل ، لكن حرارة الشوق الملتاع ما لبثت ان بددت شعوره هذا .

وأحس بأن الربيع بدأ يزهر في جسده . وشعر بانتفاضة الدماء في صدره وكأنها تجري لاول مرة في عروقه وأوردته وخلاياه . وشاركته النشوة الازهار المترافصة حول مياه الحوض . وأحس بأن شمس الربيع التي تنفذ من خلال أغصان الاشجار ثقوبا ذهبية

تشرق فجأة في نفسه طاردة عفونة الماضي المترسبة بين أضلعه . ذابت كل الاشياء . وذابت هموم العالم : الناس ! الاهل ! الاصدقاء ! الزوجة ! المكتب ! والكتب ! والروايات التي كتبها ! والاشعار التي حفظها ! لتتحول الى مساحة صغيرة وحجم صغير جدا هو حجم هاتين الشفتين !

ران صمت عسلي الطعم .. وارتاع فجأة . كأنه كان في جوف بئر عميقة الهوة وظهر فجأة لنور الشمس : لا يعقل ان أوغل في ممارسة اللعبة الخطرة لاني سأكون أول الخاسرين !

.. ولما عاد في المساء الى المنزل كتب كل ما حصل معه حتى ساعة متاخرة من الليل . ولما دخل مخدعه وجد زوجته ما تزال تتقلب في فراشها رغم انها حاولت ان تضبط حركتها كي لا توحي له بانها ما زالت مستيقظة . ولكنه عندما اندس في فراشه الدافيء استيقظت محاولة اصطناع المفاجأة ... وضاجعها باحساس رتيب ، ممل) .

انتفضت هذه المرة : من المستحيل أن تتطابق هذه الاشياء هذه المطابقة الكاملة ! انه يكتب عن الامس ! عن أرقي ، وعن المضاجعة الملة ، وعن الفتاة الغامضة .. ترى ما مدى عمق العلاقة بينهما ؟

سأتكلم هذه المرة معه بصراحة وبصراحة متناهية ! ان اطراف الخيوط الخفية بدأت تظهر ! لن يتهمني هذه المرة بالسذاجة والغباوة . ان ما كان حدسا غامضا أصبح واقعة حقيقية بكل تفصيلاتها وملامحها ! علاقة مريبة بفتاة ! حديث عن زوجته ! وحديث عن أوهامه وهلوساته ! سأبدو هذه المرة ممسكة بكل أدوات الجريمة وبكل الحقائق الدامغة !

... ولكن ماذا ستكون ردة الفعل عنده ؟ سيضحك ؟ حتما لا ! لانه سيكون في قلب الشبكة !

.. وعندما عاد في الظهيرة ابتسمت له محاولة اخفاء ارتباكها المفاجيء . كان حضوره قويا على نفسها ربما بسبب ما يصطرع فيها من وساوس وما يتقاذفها من موج الاوهام !

ولما ارتاح قليلا ابتسم لها . كان حريصا على هذه العادة . وكانت الابتسامة هي الايماءة الرئيسية عنده . فهناك ابتسامة للمعذرة وابتسامة للطلب وابتسامة للدخول وأخرى للخروج !

طلب فنجانا من الشاي . كان الطقس في الخارج يوحي بالدفء مع موجات هوائية باردة كانت تندفع بتقطع عبر النافذة .

وضعت على الطاولة كوبين من الشاي مع انها قلما تستلذ طعمه، لكنها حاولت من خلاله أن تجلس الى جانبه . بدأت تراقبه خفية وهو يرشف الشاي برشفات متمهلة . وكان على محياه يرتسم شعور بالارتياح . ولم ينفعها كل تدقيقها وتفحصها لملامحه في ان تكتشف فيه آثار جريمته ، وربما جعلها هذا تتردد كثيرا قبل ان تطرح الموضوع . كان حضوره وابتسامته سدا منيعا أوقف اندفاع مجرى عواطفها وافكارها !

أتحاول أن تطرح الموضوع فتشوه صورتها أمامه فتبدو مهتزة الملامح ؟ أم انها ستظهر امامه امرأة قادرة على كشف كل خبيثة ؟

ـ أانت تكتب الآن رواية جديدة ؟

ابتسم ايضا !

هل عرف ؟ تساءلت . ولكنها أحست مع ابتسامته ببوادر الخيبة .

وفضلت اختصار الحديث بهذا السؤال فقط .

ولكنه أردف هو هذه المرة متسائلا : هل قرأت الدفتر ؟

حاولت ان تنكر لكنها لم تستطع : نعم ! بطريق الصدفة وانا انفض الغبار عن ....

ـ ليس مهما ، ولكن من عادتي ان لا أقرىء أحدا الا فصولا كاملة كي يستطيع القارىء ان يشكل صورة واضحة على الاقل عن جزء من عملي الروائي !

اندفعت قائلة : أكنت ستسمح لي بمطالعة فصول هذه الرواية قبل اتمامها ؟

أجاب بعفوية : بالطبع . كالعادة !.. فانا أحترم نقدك !

أحست بالخجل ، وخافت ان تفضح ملامحها خفايا وخبيئة نفسها ووساوسها ، وحاولت أن تداري خجلها وكأنها تخاف ان يكتشفها بالجرم المشهود : لقد قرأت صفحات معدودة بالصدفة كما قلت !

وبدا غير مهتم بتاتا : هذا لا يمنعك من أن تستمتعي بقراءة الفصول المتبقية في المستقبل ، فانك ستكتشفين فيها عالما ساحرا !

ثم أردف : هل اعجبتك شخصية الفتاة ، أم هي تبدو غامضة حتى الآن ؟

تساءلت : لماذا هذا السؤال الخبيث والماكر ؟ هل يحاول استدراجي ؟ هل أكشف أوراقي وأعري نفسي ؟

ـ تبدو لي غامضة حتى الآن . لعل فصولا أخرى ستكشف حقيقتها.

ـ لكنه غموض محبب وليس مرهقا . أليس كذلك ؟

هل يريد احراجي ؟

وتمتمت باختصار وبشيء من الحدة وعدم الاقتناع : ربما !

وكأنها وجدت الفرصة سانحة لان تدور حول حواشي الموضوع دون الولوج اليه بطريقة صريحة فقالت : أشاهدت نماذج شبيهة بها في حياتك وعلاقاتك أم هي وليدة الخيال ؟

ضحك هذه المرة وبصوت مسموع .

أخذتها رهبة النوجس : هل اكتشف مخاوفها ؟

وأردف بعد صمت طويل وكأنه عائد من منفى بعيد : ... أحس بأنني بدأت أعرفها !.. ثم أردف : لقد برد فنجانك !

وكالمذهولة جرعت الشاي دفعة واحدة !

.. ومضى الى مكتبه ، ولم ينس ان يرسم على شفتيه ابتسامته المعهودة قبل ان يلج الغرفة . وفتح دفتره السميك وكتب :

« ١٩ نيسان » : (.. في هذا اليوم حصلت المفاجأة .. لم تأت الى الحديقة ! انتظرها طويلا ! تسمرت عيناه على باب الحديقة الحديدي الكبير . كان الجو باردا وكان بضعة متنزهين يجلسون بعيدا خلف النصب الرخامي . وكانت السنونو تملأ الفضاء برفيف أجنحتها السوداء وزقزقتها المتواصلة .. وظل حتى ساعة متأخرة دون أن تأتي .. وعاد في اليوم الثاني والثالث والرابع . وكأنه يحاول ان يقبض على حلم فرّ من بين أجفانه !

ولما عاد الى منزله كانت امرأته هذه المرة أكثر حيوية واندفاعا وكلاما ، فاحس تجاهها بشوق مكتوم منذ عشرين عاما . وود ان يفرغ عاطفته الدفينة امامها ولكنه أحس بالحرج ..) .

أحمد محمود زين الدين

مكتبه انطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقدم للطلاب
جميع الكتب المدرسية
العربية والفرنسية